

تقديم

إيماناً بوجوب النصيحة التي حث عليها القرآن ودعا إليها سيد ولد عدنان ﷺ فقد وضعت في هذه الصفحات ما عندي من ذلك، على حسب ما تستدعيه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، نزولاً عند رغبة الأخوين الفاضلين الأخ الفاضل / علي مسعود الرابضي حفظه الله والأخ الفاضل / عبد الله علي القذان حفظه الله.

وقد اشتملت هذه الصفحات على مواضيع هامة ينبغي أن يطالعها الإنسان ويكرر دراستها الحين بعد الحين، وينبغي أن يقرأها الإنسان على زملائه، وعلى من أمكنه، ففيها مواعظ وتذكير متعلق بأمور هامة كما قدمنا، ومن المستحسن أن يقرر المدرس لطلبته درساً في هذه الصفحات.

وأسأل الله أن ينفع بها، وأن يهدينا جميعاً إلى الحق القويم، والصراط المستقيم، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على محمد وآله الطاهرين:
الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وصلوات الله وسلامه، ورحمته وبركاته
على رسوله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى أهل بيته المطهرين، وبعد:
فقد اقترح بعض الإخوان وضع باب يتضمن ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم،
فاستحسنت ذلك، وهأنذا أشرع في المقصود مستعيناً بالغفور الودود.

النية

فأول ما ينبغي لمن يريد طلب العلم تقديم النية الحسنة، والنية الحسنة: أن يعزم في قلبه عزمًا،
ويعقد في قلبه عقدًا على أن يطلب العلم الذي أنزله الله على نبيه ﷺ وألزم المكلفين بمعرفته.
ونجاح هذه النية، والحصول على الغاية منها مرهون بعدة أمور لا بد من توفرها:
الأمر الأول: الإخلاص:

فلا بد أن تكون النية خالصة لا يخالطها ما يكدر صفوها، ولكي تكون النية خالصة لله
فيجب مجاهدة النفس فيما تدعو إليه من حب الرفعة والترؤس وحب الجاه والمال، وحب
الثناء، فالنفس بطبعها تدعو إلى ذلك دائماً وتميل إليه وتنجذب، ومن خلال ذلك يتسلل
الشیطان إلى قلب المسلم فيفسد عليه نيته، وما يبتني عليها، ومن هنا جاءت الرواية عن النبي
ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته
إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى امرأة ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر
إليه».

وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة
الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا
الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة: ٥]، فعلى المسلم أن يكون متيقظاً شديد التيقظ،
ومتحذراً شديد الحذر من تلك المداخل التي يتسلل منها الشيطان فيغلقها في وجهه، وقد حكا
الله تعالى عداوة الشيطان، وما أخذ على نفسه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧].

وإغلاق الأبواب في وجه الشيطان يتم بما يلي:

- ١- الاستعانة بالله تعالى، والاستعاذة به من الشيطان وكثرة الدعاء.
- ٢- إذا حدثتك نفسك بأنك ستنال المكانة العالية، وسيشار إليك بالبنان أو بنحو ذلك فجد
في طلب العلم لتصل إلى هذا الأمل السعيد، فإذا حدثت نفسك المرء بهذا أو نحوه، فليقل لها:
أخسئي أيتها النفس الأمارة بالسوء، فإن المغرور من صدقك، وليقل: اللهم إني أعوذ بك من
شر نفسي، اللهم أعني على نفسي، وليعلم المؤمن أن الإخلاص يبلغ بالمرء الذروة من الشرف
والرفعة، وينزله منازل الأبرار، ومن هنا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «طوبى للمخلصين:

الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك هم مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء».

وكما أن الاتصاف بالإخلاص، والنية الصالحة تصل بالإنسان إلى المنزلة الرفيعة، فإن الاتصاف بالرياء وسوء النية تهبط بالمرء إلى أسفل الدرجات، ومن شأن الرياء أن يحجب الإنسان عن ربه تعالى، وينزل به إلى منزلة الحيوان، فلا تزكو له نفس، ولا يقبل منه عمل، وسيفضح الله تعالى المرآئي ويكشف خداعه ويهتك ستره.

نعم، إذا عمل الإنسان العمل وأخلص فيه لله تعالى، ثم أطلع عليه الناس وحمدوه وأثنوا عليه، فإن ذلك لا يحبط عليه عمله.

الأمر الثاني: الاستعانة بالله تعالى: فقد قال تعالى لنبيه ﷺ في أول ما أنزل عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: ١]، فالنجاح الذي هو النجاح هو في السير على ضوء إرشاد العليم الحكيم.

فعلى طالب العلم أن يكثر من طلب الإعانة بعد الصلوات وليلاً ونهاراً وعند القراءة وقبلها وبعدها.

الأمر الثالث: التوبة والاستغفار وملازمة التقوى: في الأثر عن النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وعلى هذا فإن من كان عاصياً لله غير تائب فإن الله تعالى لا يريد به خيراً في حال عصيانه، ومن هنا قال الشافعي في أبيات:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نور ونور الله لا يؤتى لعاصي

وهذا صحيح فإننا وجدنا الله سبحانه قد جعل العلم والنور ثواباً عاجلاً للمتقين المهتدين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: ٢٩]، أي نوراً تفرقون به بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ ءَامَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

وفي الحديث: «من أخلص لله أربعين صباحاً قائماً ليله صائماً نهاره تفجرت ينابيع الحكمة من على لسانه»، أو كما قال.

فعلى طالب العلم الإكثار من التوبة والاستغفار وملازمة التقوى، وألا يتساهل في شيء من معصية الله تعالى.

فهذه الأمور الثلاثة يجب أن يستحضرها الطالب للعلم في وقت النية وبعدها، وفي حال طلب العلم، وعليه أن يكثر من الدعاء والاستغفار وطلب الإعانة من الله، وأن لا يمل من ذلك، فإن الله تعالى لا يخيب من دعاه، ولا يقطع رجاء من رجاء، فإنه تعالى سميع عليم، غفور رحيم، قريب مجيب.

نعم، ولعل الإخلاص هو السر في الأضعاف المضاعفة من عشرة أضعاف إلى سبعمئة إلى ما شاء الله من الأضعاف.

وقد قال الرسول ﷺ في بيان منزلة الإخلاص وأهميته: «الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم».

لهذا ترى المخلص يعمل الخير، ويحارب الشر، وإن لم يكن له فيه منفعة ولا هوى، لاتهمه الشهرة، ولا محمدة الناس، ولا رضاهم، بل إنه يؤثر الخفاء على الشهرة، وعمل السر على عمل العلانية، تجنباً للرياء، وبعداً بنفسه عن مزالق الشرك الخفي، متمنياً أن يكون من الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا.

كيف يكون الطالب حال الطلب؟

يجب أن يكون الطالب حال الطلب متواضعاً:

أولاً: لربه وخالقه تبارك وتعالى، فيمتثل لأمره، وينتهي عند نهيه، ويتأدب بآدابه، ويرجوا ثوابه ويخشى عذابه، ومعنى ذلك أن يتخلى عن نفسه ويسلمها لربه خالصة، ويعتقد في قلبه ذلك، وأنه عبد لله تعالى مملوك، لا أمر له معه، يسير في طريق الله التي رسمها لعباده من غير تلكؤ ولا استبطاء ولا ضجر، قد رضي عن الله في كل ما أمر ونهى، في كل ما قسم له من العافية والبلاء، والفقر والغنى، لا يحسد أحداً على ما آتاه الله من فضله، ولا يتبرم بما هو فيه من الفقر والبلاء، ولا يشكو إلى أحد فقراً ولا بلاءً، بل هو في كل حالاته سعيد راض بما هو فيه، قد عرف أن ربه غني حميد، وأن خزائن السماوات والأرض في يده، وأنه ما صرف عنه الدنيا إلا بعلم وحكمة، وأن فعل الله فيه رحمة له وخير له، فطرد هموم الدنيا وأحزانها عن قلبه، وحل محلها القناعة، وعرف أن ما قضاه الله تعالى خير فهو من عباد الرحمن حقاً وصدقاً قد أخضع هوى نفسه لربه، وتواضع لعظمته واستسلم لعزته وخشع لرهبته، فتخلى عن شخصيته ومعنويته، وعزته وكرامته، وكان كما ورد في الأثر: «المؤمن هين لين»، «المؤمن غر كريم».

ثانياً: لمشائخه فعليه أن يوقرهم ويعظمهم ولا يرفع صوته عليهم ويتأدب في السؤال والجواب وفي الحوار والخطاب، ولا يترفع عن الاستفادة من أي شيخ فإن الرفع في التواضع.

ثالثاً: لزملائه، فلا يترفع عليهم، ولا يسيء في خطابه إليهم وعليه أن يوقرهم ويجلهم ويعظمهم ولا يرى لنفسه عليهم حقاً، ولا يتهمهم بالتقصير في حقوقه وإن كان أكثر منهم علماً وأرفع نسباً، وحري بمن كان كذلك أن يكون أشدهم تواضعاً، وأكثرهم مراعاة لحقوق زملائه فإنه لا يزيده ذلك إلا رفعة.

والواجب على من فضله الله تعالى بعلم أو فهم أو نسب أن يشكر الله تعالى، والشكر لله تعالى هو بالتواضع له سبحانه وتعالى، وبالتواضع لعبيده، وأن لا يتناول على أحد من خلقه، ثم يحمد الله تعالى على ما آتاه من الفضل، ويسأل ربه أن يزيده من فضله.

ولا ينتظر من زملائه ويتطلب منهم أن يعظموه ويشكروه، ويوفروا له ثواب فضله عليهم، فإن قاموا بحقوقه فذاك وإلا عاد عليهم بالذم والتشريب.

وصلوات الله على سليمان بن داود، فلقد كان عالماً بطبيعة الدنيا إذ قال حين نظر إلى فضل الله عليه: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [سورة النمل: ٤٠]، وصلوات الله وسلامه على نبينا محمد وآله فلقد كان أشد الناس تواضعاً فإنه ما انتقم لنفسه قط، ولا ترفع على صغير ولا كبير ولا على شريف أو وضيع.

ولهذا كان يسوي نفسه بأصحابه لم ير لنفسه مكاناً عليهم أو تطلب منهم أن يقدروه أو يرفعوه على أنفسهم، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

ولكن الله تعالى كان يغار على نبيه من كثرة تواضعه فيأمر بتعظيم نبيه، وبتوقيره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات: ٢]، وقال في تأديب الصحابة: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣].

فعلى الطالب أن يكون في غاية التواضع، ومن ذلك أن لا يلوح لزميله بسوء الفهم، فإن ذلك مما يصدع القلوب، ويكدر صفو المودة، وقد أمر الله تعالى بإصلاح ذات اليمين في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ١]، ولن يتم هذا الواجب الذي افترضه الله تعالى في الكتاب الكريم إلا إذا تجنب المرء أسباب الشيطان التي تكدر الصفو، ثم القيام بحقوق الأخوة الإسلامية.

الحسد

يتفاوت طلبة العلم كغيرهم في الذكاء وغيره فبعضهم أذكى من بعض، فهذا سريع الفهم وهذا بطيء الفهم، وهذا له وجاهة بين الزملاء وذاك بخلافه، وهذا له محبة عند زملائه والآخر بخلافه، وهذا محظوظ في رزقه، وهذا محروم، وبعضهم له قدرة على التعبير والخطابة، وهذا أقل مقدرة منه، وآخر صوته حسن وذاك بخلافه.

وقد يكون الأقل علماً أكثر حظاً في إقبال الطلبة إليه والدرس عنده وهكذا، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ بِخَبْرِكُمْ﴾ [سورة الفرقان: ٢٠].

وهكذا سنة الله في خلقه فتراه سبحانه يعطي زميلك أو شيخك أو جارك رغد العيش وملاذه ومشتهياته، ويمكنه من نيل ذلك ويغدق عليه المال، ويوجه إليه أفئدة الناس، ويمكن له في الدنيا بينما ترى زميله أو من هو في منزلته في العلم، أو أكبر منه منزلة أو أقل على العكس من ذلك، فتراه محروماً من كل ذلك المتاع، فلا ينال لقمة العيش الجافة إلا بعد تعب، ولا يكاد يعرف اللحم والسمن والعسل، سيارته رجلاه، فهو يقاسي من شدة الفقر وقسوته في حال ما يرى زملائه أو مشائخه وجيرانه يتقلبون في متاع الدنيا وزينتها لا يشتهون شيئاً إلا نالوه.

نعم، وصنيع الله تعالى هذا ليس لكرامة أحدهما عليه وهوان الآخر، كلا فلقد أعطى الله تعالى فرعون زينة وأمواً، وحرّم موسى وهارون، ولقد بلغ صنيع الله تعالى بموسى حالاً اقتضت أن يأكل من ورق الشجر حتى قال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: ٢٤]، قال علي عليه السلام: (والله ما سأل موسى ربه إلا قرصاً من العيش يسد به جوعته).

فطالب العلم العاقل المؤمن بالله يعرف أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قد رضي بما قسم الله تعالى له، واطمأن به وسكن إليه، فلم يشغل نفسه بما قضاه الحكيم، وقسم بين عباده العزيز العليم: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: ٢١].

قد عرف أن الله أعرف بمصالح عباده، وأن قسمته عدل وحكمة، وعرف أن الفقر شعار الصالحين، وزينة المتقين، وصديق الأنبياء والمرسلين، وعرف أنه إن رضي فله رضا الله وإن سخط فله سخط الله، وأن الله تعالى لم يعط من أعطى لكرامته عليه، ولم يحرم من حرم لهوانه عليه، وأنه إن سخط قسمة الله وكرهها فإن ذلك لا يردّها فأراح نفسه من التعب، وأن الفقر أقرب إلى التقوى وأبعد من الذنوب الناتجة عن التفریط في الحقوق المالية، وأبعد من شواغل القلب، ومن حسد الناس وعداوتهم لأجل المال.

المؤمن العاقل يعرف أن ذلك فتنة واختبار، يختبر الله تعالى بذلك عباده، ومن هو الذي سينجح في هذا الاختبار، ويصل إلى العاقبة الحسنى التي أعدها الله للناجحين وليعلم الطالب أن الله سبحانه وتعالى سيأجره على الصبر ومدافعة الحسد، وعلى الرضا بما قضاه الله تعالى فيه. فعلى هذا يكون المؤمن قد استجمع الخير ولفه إليه من جميع أطرافه، فمن هنا يكون الفقر نعمة يجب أن تشكر.

نعم، الحسد آفة عظيمة وبلية جسيمة تحتاج إلى قوة إيمان وإلى همة عالية ويقين، وللسلامة من الحسد ينبغي:

أولاً: أن يعلم أن الله هو الذي قسم بين عباده لحكمة بالغة.

ثانياً: أن يجاهد نفسه ويكبح جماحها ويقول لها اخسئي أيتها النفس الأمارة بالسوء والداعية إلى الخسران وإلى طاعة الشيطان، أتريدين أن أدخل في صف اليهود الذين ذمهم الله تعالى على الحسد فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٥٤].

ثالثاً: الإكثار من الدعاء والتضرع إلى الله والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ومن شر النفس الأمارة بالسوء.

رابعاً: الدعاء في السر لمن تهم نفسك بالحسد له، وتقول: اللهم زده نعماً إلى نعمه، وفضلاً إلى فضله، ثم تقول: يا ذا الفضل العظيم هب لي من فضلك وزدني ولا تنقصني وأكرمني ولا تهني وأعطني ولا تحرمني وآثري ولا تؤثر عليّ، وأعزني وارفعني وأوسع لي في رزقي، وأصلح ديني ودنياي وآخرتي، ولا تفتني بما منعني، وهب لي نوراً أمشي به في الناس، وأهتدي به في الظلمات وزدني علماً، اللهم أنت العليم الحكيم، أنت تعلم ما يصلحني وما يفسدني فهب لي ما يصلحني واصرف عني ما يفسدني، ورضني بما قسمت لي يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، اللهم صل

وسلم على محمد وآله الطاهرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

هذا، واعلم أن طبيعة الحسد عند كل إنسان، لكن المؤمن يجاهد هذه النزغة التي جبلت عليها النفس ويردها، ولا يستجيب لداعيها، وبسبب المدافعة يستحق المرء الثواب، وحسن العاقبة؛ لأن الثواب على قدر المشقة، وفي ذلك من المشقة ما يحق له أن يسمى بالجهاد الأكبر.

عادة سيئة

قد يكون للطالب رفعة ومكانه إما في مدرسته وبين طلبته، وإما في مكان آخر فيسيئه أن يتعلموا من غيره، لئلا تنقص مكانته في نفوسهم ويقوم ويقعد لذلك، وهذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، فليحذر الطالب أن يكون هكذا فلقد خاب إذاً وخسر.

فالتألم المؤمن يسعى بكل جهده في تعليم طلبته أو أهل قريته سواء كان هو المعلم لهم أو غيره، فإن أخذوا العلم عن غيره، فإنه لا ينقص من أجره ومكانته عند الله شيء، بل ولا عند الناس، فليعلم الطالب أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرفع ويضع ويعز ويذل، وليطمئن على مكانته وعلى رفعة وعزته إذا كانت نيته خالصة لله تعالى، فإنه ليس لأحد إلى هدمها من سبيل، واللازم على الطالب الاقتداء بنبيه ﷺ، فلا يطلب على التعليم أجراً ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً، بل يعلم ابتغاء رضوان الله، ولا يرى لنفسه منة عليهم، وإن كانت المنة لازمة عليهم.

أما أولئك الذين يستاءون إن أفدت طلبتهم أو نصحتهم أو خطبت في قريته ووعظت ويظنون أن أولئك الطلبة أو أهل تلك القرية سلم لهم وحكر عليهم، فلا يحق لأحد أن يأتيهم، ولا لهم أن يأتوا إلى أحد ولو كانوا في حاجة، فهذا الصنف من الطلبة لا خير فيهم، وسعيهم في ضلال، ولن يجنوا إلا الخسران، ونقول لهم توبوا إلى الرشد، وأصلحوا نياتكم، واطلبوا الثواب من ربكم، ولا تكن أعمالكم لطلب المكانة والرفعة، اطلبوا الرفعة من الله تعالى، وآتوا البيوت من أبوابها، فإن الكرامة في التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، والعزة هي في طاعة الله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: ٨].

وإنكم بهذا قد أغلقت باب المعاونة التي فرضها الله في القرآن حيث يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [سورة المائدة: ٢].

نعم، قد لا يخلو الطالب من وساوس النفس الأمارة بالسوء، ومن نزغات الشيطان الرجيم في حال طلب العلم وقبلة وبعده، ولكنه في حال الطلب للعلم ربما زادت نزغات الشيطان، فقد يكون للطالب زملاء في مستوى واحد، وفي مرتبة واحدة، ومع مرور الأيام يتقدم عليهم بعضهم في الحفظ والذكاء وجودة الفهم وحسن المناقشة والاعتراض والجواب، ثم يحظى من بينهم بالنباهة، وحسن الذكر عند الأساتذة وبين أهل قريته ومجتمعه، مما يؤدي ذلك إلى حسد زملائه له، ثم إلى تنقيصه وذمه واتهامه، وهكذا الأستاذ قد ينبغ من بين طلبته نابغ فيحظى بالنباهة مما يدعو أستاذه إلى الحسد له.

فليحذر طالب العلم عند حصول مثل ذلك من أن يقع في حبائل الشيطان، وليجاهد نفسه أشد المجاهدة، فإن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي، ولا يطع نفسه في شيء من ذلك أبداً، وليصبر على ما يجده، وليسأل الله من فضله، وليعلم أن ذلك فتنة له واختبار، فليصبر وليجاهد نفسه حتى تمر عليه هذه المحنة، وهذا الاختبار، فإنه إن صبر وجاهد نفسه حتى النجاح، فإنه سيحصل على الوعد الجميل وسيوفي أجره بغير حساب، وسيحظى بالصلوات المتتابعات والرحمة العظيمة، ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، شرف الدنيا وشرف الآخرة، رفعة الدنيا ورفعة الآخرة، وعز الدنيا وعز الآخرة.

أما إذا انقاد لوسواس النفس وطاوع الشيطان الرجيم وقام وقعد لأحد زملائه بالتنقيص والذم والحق، فقد استحق من الله الطرد واللعن، والذم والرجم، والغضب الشديد، ونعوذ بالله من غضب الله خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾ [سورة الناس: ١-٦]، الحاسد من أتباع الشيطان ومن جنوده، فاحذر أيها الطالب من الخروج من ولاية الرحمن إلى ولاية الشيطان، ومن ولاية الله إلى عداوة الله.

العجب

قد يكون عند بعض الطلبة فضل ذكاء، وقوة على الحفظ وذلك فضل من الله ونعمة، وربما تسلل الشيطان من خلال ذلك إلى قلب صاحبه فيعظم إليه نفسه، ويحدثه بخصائصها ومميزاتها وبمواهبها، ثم يوازن الشيطان بينه وبين زملائه، فيريه نفسه في المنزلة العليا وزملاءه في المنزلة السفلى.

حتى إذا استولت عليه هذه الوسواس نظر إلى زملائه بعين الاحتقار والازدراء، وحينئذ يستحق المقت ويصير من تلامذة الشيطان وجنوده.

وبعد فنقول: إنه قد لا يخلو ذوا الذكاء عن مثل هذه الوسواس والخواطر، غير أن اللازم عند ذلك أن يكثر من حمد الله وشكره؛ لأنها نعم عظيمة يجب أن تشكر ولا تكفر، فيجعلها وسيلة إلى ذكر الله تعالى وحمده وشكره، وإلى التواضع للمؤمنين، والإحسان والرحمة.

ألا ترى كيف علم الله نبيه وأرشده إلى الشكر لتلك النعم التي عددها في سورة الضحى في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ⑧﴾ [سورة الضحى: ٦-٨]، ثم أرشده إلى شكر تلك النعم، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ [سورة الضحى: ٩-١١].

فالبصير في دينه يتواضع ويشكر الله تعالى، ويتنازل عن حقوقه، ولا يرى لنفسه مكانه، ويحسن إلى إخوانه وزملائه خاصة، وإلى المؤمنين عامة، ولا يتخذ ما أنعم الله به عليه من الذكاء وزيادة العلم والفهم وسيلة إلى الترفع على إخوانه وزملائه والاحتقار لهم والازدراء منهم، والضحك من سوء فهمهم، وحقيق بمن لم يكن كذلك أن يستلب منه التنوير والذكاء والفهم،

ويستولي عليه الخذلان ويستهويه الشيطان: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [سورة النور: ٤٠].

فليحذر الطالب للعلم من احتقار أي طالب للعلم، ومن الضحك من زملائه، وأقصد به الضحك الذي يعبر به صاحبه عن سوء فهم زميله الذي يضحك منه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٦٣].

التعاون

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [سورة المائدة: ٢]، الطالب إذا كان في مدرسة كبيرة تضم كثيراً من الطلبة والمعلمين، فإن الواجب عليه وعلى جميع الطلبة والمعلمين أن يتعاونوا على البر والتقوى، وذلك بأن يقوم كل واحد من الطلبة والمعلمين بعمله أحسن قيام، فالطالب يمثل أمر شيخه فيحفظ دروسه ويحافظ على مواعيد الصلاة، ويكف أذاه، ويقوم بكل قوانين المدرسة، والمعلم والقائم بعمل في المدرسة يؤدي عمله بكل نشاط، وعلى أحسن وجه، فإن ذلك من أداء الأمانة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٧]، وقال تعالى في مدح المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٨].

وعلى الجملة فإن طلب العلم ونشر العلم وتعليمه من أكبر أنواع البر، وقد فرض الله تعالى على عباده في كتابه التعاون على البر في الآية الأولى، وبناءً على هذا فإن كل ما يساعد على نشر العلم أو يرغب فيه، فإنه من تمام المعاونة المأمور بها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [سورة المائدة: ٢].

ومن تمام الدعوة إلى الله التي نوه الله بصاحبها في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: ٣٣]، فعلى المعلم في المدرسة أو العامل فيها أن يحتسب الأجر من الله وليعلم أنه عامل من عمال الله، وعليه أن لا ينظر إلى من فوقه أو تحته، أو من يساويه بل يعمل عمله من أجل ثواب ربه، ومن أجل أمر ربه بالمعاونة لطلبة العلم.

ولا يأنف إذا قال له أمر فوقه يعمل كذا، فإن الأنفة من ذلك هي من نزغات الشيطان يريد أن يصد بهما عن عمل البر والتقوى.

غير أن من الواجب على كل عامل في المدرسة أن يتجنب كل لفظ فيه تعال ورفعة، وعليه أن يستعمل اللطف في طلب المعاونة من الطلبة أو من غيرهم، ويتجنب الأوامر الحازمة التي يمكن أن يحصل المطلوب من دونها مهما وجد إلى ذلك سبيلاً، فإنه ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وفي الرفق يمن وفي الخرق شؤم، ولو كان الرفق رجلاً لكان صالحاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٥٣]، فهنا يأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لعباده وأن يرشدهم باستعمال الكلمة اللينة، والعبارة اللطيفة في محاوراتهم

ومخاطباتهم، وأن يستعملوا الخطاب الحسن بل أن يستعملوا العبارة التي هي ألطف وألين وأحسن ؛ لأن الآية وردت بصيغة التفضيل، ثم علل سبحانه ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ بسبب الخشونة في الكلام ﴿يَنْزَعُ يَنَّهُمْ﴾ فيكدر صفوهم، ويثير بينهم بسبب ذلك العداوة والبغضاء، وقال الله تعالى في العهد الذي أخذه على بني إسرائيل على عهد موسى ﷺ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٤]، وتفسير هذه الآية يشابه تفسير الآية الأولى، فهي في استعمال اللين والرفق والتلطف في المحاورة والخطاب.

فعلى المؤمن وخصوصاً طلبة العلم وحملته أن يتأدبوا بآداب الله تعالى، ويتخلقوا بأخلاقه، وقد وصف الله تعالى الرعيل الأول فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

فليعلم الطلبة والمعلمون أن الكلمة القاسية بين المؤمنين مكروهة في الإسلام، وأن الكلمة التي هي أحسن فريضة واجبة بين المؤمنين فرضها الله في القرآن ودعا إليها الرحمن وكرر ذكرها في آيات كثيرة لما لها من الشأن والمكانة عند ذي الجلال والإكرام. فمن ذلك زيادة على ما سبق: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

وقد ضرب الله المثل للكلمة الطيبة، وللکلمة الخبيثة في كتابه الكريم، وكم في السنة في هذا الباب، ولكن ما ذكرنا فيه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. الإنسان هو محل الخطأ والنسيان، فقد تزل به قدمه إما عن جهل أو غضب أو عن غير ذلك فيخالف تأديب ربه فيخشن في كلامه على زملائه أو على طلبته ويتجاوز الحدود، فاللزام علينا عند هذه الحالة أحد أمرين:

١- أن نداويها بالعلاج الذي عاجلها الله تعالى به، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة فصلت: ٣٤]، فالواجب رد الكلمة السيئة بالكلمة التي هي أحسن، وقد مدح الله عباد الرحمن بمدائح في سورة الفرقان منها، قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣]، ومعنى قالوا سلاماً على أحد تفسيرين: قالوا قولاً يسلمون من تبعاته فلا يلحقهم بسببه ذنب، والتفسير الثاني: مثل ما جاء في آية أخرى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبِّئُكَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٥].

٢- أو بالسكوت والإعراض وتاماً كما قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ معلماً له كيف يقابل أذى أهل الكتاب والمشركين في سورة المائدة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة المائدة: ١٣].

وهذه درجة فوق درجة السكوت والإعراض إنها درجة العفو والصفح، ثم أفادت الآية أن ذلك من الإحسان، وأن الله يحب فاعله.

فإذا كان الله سبحانه قد أمر رسوله بالعفو عن أهل الكتاب والمشركين الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [سورة آل عمران: ١٨٦]، مقابل هذا الأذى الكثير، فإننا نعلم بطريق الأولى أن العفو عن المؤمنين فيما صدر عنهم من أذى قليل أو كثير له مكان كبير عند الله، ومنزلة رفيعة.

فعلى الطالب أن يتأدب بآداب الإسلام، ويستضيء بنور القرآن فلا يقابل السيئة بالسيئة، وليجاهد نفسه على ذلك ولا يسمح لها بالتشفي، وليعلم أنه مأجور على كظم الغيظ، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٣٣] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وكفى بهذا ثواباً وأجرأ، وقال الشاعر، وهو أبو نواس:

خل جنبيك لزام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من ألام فم فاه بلجام

الاشتغال بعيب النفس

وعلى الطالب أن يشتغل بعيوبه وذنوبه ولا يشغل نفسه بالتتبع لعورات الآخرين والتجسس عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى قد نهى المؤمنين عن ذلك في سورة الحجرات فمن كان من المؤمنين، فليترك التجسس والتتبع لمعائب الآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [سورة الحجرات: ١٢].

وفي السنة الكثير من التحذير عن ذلك والوعيد الشديد، ولكن فيما ذكرنا من النهي في القرآن كفاية لأهل القرآن.

فالمؤمن له من نفسه شغل شاغل فليشغل الطالب نفسه بنفسه، ولا يستبط ويحتهد في فلان وفلان، فلان طيب وفلان دونه، وفلان خبيث وفلان منافق، فهذا من الفضول المذموم، والخلق المشئوم، وقد قال الله تعالى في مثل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١].

وصية لأmir المؤمنين

وقال أمير المؤمنين لابنه الحسن عليه السلام: (يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك واکره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك)، [من نهج البلاغة].

الحث على ستر العورة

بلى إنه ليحق بالمؤمن إذا اطلع من أخيه على عورة أن يستر عليه عورته، ولا يحدث بها فإنه في ذلك مأجور، وقد جاء في الرواية عن النبي ﷺ كثير في هذا الباب، فمن ذلك قوله ﷺ فيما روي عنه: «من علم من أخيه سيئة فسترها ستر الله عليه يوم القيامة»، وقال ﷺ فيما روي عنه: «من ستر على مؤمن عورة فكأنها أحيا مؤودة».

رذائل تكدر الصفو

وقد جاءت الرواية عن النبي ﷺ بالتحذير من رذائل تكدر صفو المودة بين المؤمنين، وتسبب التنافر بينهم، فقال ﷺ فيما روي عنه: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله تعالى، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه، كل المسلم على المسلم حرام: ماله ودمه وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، التقوى هاهنا التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ألا لا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».

عوائق في سبيل طالب العلم

١- القرابة: قد يكون هناك عوائق في طريق طالب العلم، بل ربما لا يخلو طالب العلم عن شيء منها، فقد يقف في طريقه أبواه أو أحدهما أو أسرته كلها أو أهل قريته، واللازم على طالب العلم عندئذ الصبر على الأذى، ومواصلة طلب العلم، والاستعانة بالله تعالى، وليكثر من: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٦].

ومن دعاء النبي ﷺ الذي تعلمه من جبريل عليه السلام يوم حنين، وهو: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان»، وليدار الطالب أبويه وليلطف لهما، ولا يغلظ لهما الكلام، فإن حقهما كبير.

وإذا كان الطالب في فراغ من وقته فليجعله في خدمة أبويه، وهكذا كلما حصل له فراغ، وليصبر على ما لحقه من الأذى من أبويه بسبب طلب العلم، وليستعن بالله كما قدمنا، فإن الفرج مع الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق: ٢-٣]، فهذا وعد من الله فليثق طالب العلم بوعد الله.

٢- الفقر: الفقر هو سيما طلبة العلم، وحليتهم بل إنه أحد الستة التي لا ينال العلم إلا بها، وهي:

ذكاءٌ وحرص وافتقار وغربة وتلقين أستاذ وطول زمان

فليحمد الله طالب العلم أن وفقه لطلب العلم، وحماه من زينة الدنيا ومتاعها، فلولاً توفيق الله تعالى وحمايته لا ستهوته زينة الحياة الدنيا وشغلته عن ذكر الله وطلب العلم.

وعلى المؤمن وخصوصاً طالب العلم أن لا ينظر إلى أهل الدنيا، أو إلى من هو فوقه في المعيشة، فإن ذلك سوف يؤدي إلى أن يحتقر نعمة الله التي هو فيها، وعليه أن يكرر النظر إلى من هو دونه في المعيشة والصحة وقلة ذات اليد، وأن ينظر إلى أهل العاهات والمصائب والأمراض، فإن ذلك سوف يؤدي به إلى شكر النعمة التي هو فيها واستعظامها وبذلك ينال ثواب الشاكرين ويحضا برضا رب العالمين.

وبهذا أوصى النبي ﷺ أبا ذر الغفاري، فقد أوصاه بأن ينظر إلى من هو دونه، وأن لا ينظر إلى من هو فوقه.

وبعد، فإنها وصية الله تعالى لنبيه ﷺ في الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [سورة الحجر: ٨٨]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

فقد أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر مع المؤمنين المساكين، ولا يعدي بصره إلى أهل الدنيا وأهل الغنى والترفيه، ثم قال الله تعالى للفقراء من المؤمنين مسلياً لهم عن الدنيا ومذكراً لهم بنعمه عليهم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة يونس: ٥٨]، وقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة التوبة: ٥٥].

فعلى المؤمن وطالب العلم خصوصاً أن يسير على ضوء هذه الوصايا الربانية التي جاءت في القرآن الكريم، وأن يتخلق بهذا الخلق الرفيع الذي تخلق به النبي ﷺ والصالحون من أمته. وليعلم الطالب أن الفقر والغنى ليس ميزاناً تعرف به منازل الرجال في التقوى، بل لا يعدو الأمر أن يكون كما قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥]، وكما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [سورة الفرقان: ٢٠].

فالفقر بلوى وفتنة، وكذلك الغنى، فإذا صبر الفقير على فقره ورضي بقسمة ربه، ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله من فضله نال بذلك ثواب الصابرين، وهذه هي منزلة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون الذين أوتوا العلم واليقين.

وقد حكا الله لنا كيف كان نظر الناس إلى زينة قارون، وقسمهم قسمين: قسم من أهل الدنيا، وقسم من أهل الآخرة، فحكا لنا قول كل قسم منهما، فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [سورة القصص: ٧٦]، إلى أن قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة القصص: ٧٩] وقال الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ [سورة القصص: ٧٩-٨٠].

فجدير بطالب العلم أن يتخلق بأخلاق الذين أوتوا العلم، وأن لا يتخلق بأخلاق الذين يريدون الحياة الدنيا، وليعلم الطالب أن أنبياء الله ورسله كثيراً ما عاشوا فقراء أهل حاجة وخصاصة، وكذلك الصالحون وبعض قليل كانوا أهل غناء وثروة، وقليل ما هم.

فإذا كنت أيها الطالب تعاني من قسوة الفقر وشدته فاعلم أنها سنة الله في الصالحين من الأنبياء والمرسلين وغيرهم من المؤمنين، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

واعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يرض بالدنيا لحقارتها ثواباً لعباده الصالحين فمتاعها قليل وعمرها قصير، وما نال أحد فيها نعمة إلا بفراق نعمة أخرى، وما حليت لأحد من جانب إلا تنغصت عليه من جانب، فصفوها مكدر وحلاوتها مرة، وسعادتها قلق ونكد، وكل شيء فيها إلى زوال، وقد ضرب الله تعالى لنا الأمثال للدنيا لئلا نغتر بها، فقال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ۝٤٥﴾ [سورة الكهف: ٤٥]، إلى غير ذلك كثير في القرآن الكريم.

وليعلم الطالب للعلم أنه لن ينال من الدنيا إلا ما كتبه الله له، فلا يكثّر التلهف على ما فاته منها، ولا يحزن لقلة ما قسم الله له منها.

فالأولى بالمؤمن وطالب العلم أن يكون راضياً بما قسم الله له منها، شاكراً لربه وكثير الحمد لخالقه ورازقه.

وليعلم أن الله تعالى حكيم عليم بمصالح عباده، وقد أخبرنا تعالى عن مقتضى حكمته في الأرزاق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾ [سورة الشورى: ٢٧].

قد تكتب الأقدار على البعض صنوفاً من البلاء ربما انتهت بمصارعهم، وليس أمام الإنسان إلا الصبر والتسليم لما قضاه العليم الحكيم، غير أن الإنسان هلوع وجزوع، يعظم دهشه إذا لاقته المصائب أو نزلت به الكوارث، وتضيق عليه الأرض بما رحبت فيحاول أن يخرج من حالته في أسرع وقت، وهذه محاولة فاشلة؛ لأنها مخالفة لما جعل الله أمر الدنيا عليه، فالأولى أن يصبر الإنسان نفسه ويمرنها على طول الانتظار، وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ، أي الناس أشد بلاءاً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه خف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

٣- عدم الفهم: قد تمر أيام كثيرة على الطالب وهو متفرغ لطلب العلم ومجدد في ذلك، فيرى زملائه أو الطلبة من حوله قد استفادوا وفتحت لهم أبواب الفهم بينما هو على العكس منهم، لم يحصل على كثير فائدة، وما زالت أبواب الفهم مغلقة في وجهه، فربما حدث نفسه بترك طلب العلم لذلك.

فنقول له: أيها الطالب لا تترك طلب العلم، ولا تيأس من روح الله وفضله، واصبر على الطلب، وأكثر من الدعاء والاستغفار والتوبة، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: ٦٠]، واعلم أن ما تحدثك نفسك به من ترك طلب العلم إنما هو من حديث الشيطان

ووساوسه، فاصبر فإن الفرج مع الصبر، ولن يخيب الله عباده المخلصين التائبين، وعن قريب يفتح الله عليك أبواب الفهم الموصدة، ويشرح صدرك بأنوار العلم والحكمة. ولقد بلغنا عن شيخ الأئمة القاضي عبد الله بن علي الغالبي ذلك العالم الكبير والبحر الغزير ذي الفضل الشهير رحمه الله تعالى أنه كان يطلب العلم في الجامع الكبير في صنعاء مدة سنة كاملة فانتهت السنة ولم يعرف ما هو حرف العطف، ولكنه لم يصد ذلك عن طلب العلم، فواصل الطلب وصبر وجد واجتهد حتى فتح الله عليه أبواب الفهم والعلم، فصار فيما بعد شيخ الأئمة، ومرجع الأمة، ثم هاجر رحمه الله تعالى من صنعاء لما كثرت الفتن هناك إلى ضحيان فنشر العلم في هذه البلاد الشامية، وقد كاد أن يضمحل، فجزاه الله خير الجزاء وأثابه المثوبة الحسنی في الدنيا وفي الآخرة.

فلا تيأس أيها الطالب من رحمة الله وفضله، فإن طلب العلم فريضة، ولا تكن الرابع فتهلك، واعلم أنك في سبيل خير ما دمت في طلب العلم.

الكبر

وعلى طالب العلم أن يطهر قلبه من الكبر، فإنه أحد أسباب عدم الفهم، وقد أخبر الله تعالى أنه سيجازي المتكبرين بأن يصرفهم عن فهم آياته، فقال تعالى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦].

والكبر يتمثل في رد الحق ودفعه وعدم الرضا به كما يتمثل في احتقار الناس وازدراؤهم، فعلى طالب العلم خصوصاً أن يوطن نفسه، ويعقد عزمه ونيته على قبول كل ما جاء من عند الله ورسوله، وأن يلين جانبه للناس، فإذا قبل الحق أياً كان وألان جانبه للناس فهو من المتواضعين.

وفيما قضى الله تبارك وتعالى من تكبر إبليس ثم طرده من رحمة الله إلى لعنته أكبر العظا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وهناك مزائق قد تزل فيها الأقدام فليتحذر الطالب من أن تزل فيها قدمه، وسأذكر واحداً من تلك المداحض لما له من الأهمية، وهي: حب أهل بيت النبي ﷺ ومتابعتهم وموالاة وليهم ومعاداة عدوهم، والقول بفضله، فقد أوجب الله تعالى ذلك في كتابه العظيم وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ.

فالتالب قد يشمئز من بعض ذلك ويأنف وهي طبيعة البشر، غير أن المؤمن يؤثر رضا الله تعالى على رضا نفسه، ويقبل أحكام الله تعالى التي جاءت في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ويقول: سمعنا وأطعنا.

كتمان المصيبة

إن مما يجدر بالمؤمن كتمان المصائب النازلة به، وأن لا يبدي صفحته لمخلوق، وقد حرم الإسلام الهوان والذلة والضعة، فقد جاء في الرواية عن النبي ﷺ: «من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت فإنما يشكو الله تعالى، ومن

تضعضع لغني لينال مما في يديه أسخط الله... الحديث»، وروي عنه ﷺ: «من جلس إلى غني فتضعضع له لدنيا تصيبه ذهب ثلثا دينه ودخل النار».

فاللائق بالمؤمن أن يتهاسك على ما به من مصيبة حتى تنجلي دون أن يذل لأحد ولو كان أخا ثقة، وقد روي في الحديث: «من أعطى الذلة من نفسه طائعا غيره غير مكره، فليس منا».

فالأدنى إلى الحق والأقرب إلى النفع، والأرشد في علاج المشاكل أن يظل المسلم منتصب القامة، مرتفع الهامة، لا تدنيه حاجة، ولا تطويه شدة، يجأر إلى مولاه بالدعاء، ويكشف انكساره لربه وحده، فلا يبدي صفحته لمخلوق، قد فقه قول الله تعالى له: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة يونس: ١٠٧].

من خلق المسلم

إن الناس يذلون أنفسهم ويقبلون الدنية في دينهم ودنياهم لواحد من أمرين: إما أن يصابوا في أرزاقهم أو في آجالهم، والغريب أن الله تعالى قد قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعاً، فليس لأحد إليهما من سبيل، فالناس من خوف الذل في ذل، ومن خوف الفقر في فقر، مع أن الإسلام بنا حقيقة التوحيد على الصلة بالله تعالى فيما ينوب، واليأس من الناس فيما لا يملكون فيه على الله شيئاً، ولا يقدمون نفعاً ولا ضرراً، وصلى الله على محمد وآله.

فوائد متفرقة

وهذه فوائد متفرقة تتناسب مع ما نحن فيه، فتابعها:

الفائدة الأولى: فيما ينبغي الاهتمام به أولاً:

زيادة في الفائدة أحب أن أوجه الدارسين إلى الأهم الذي يجب أن يصرفوا عنايتهم إليه في أول الطلب، فالذي يلزم الطالب المكلف في المرحلة الأولى أن يوجه عنايته:

أولاً: إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وذلك بالقراءة في كتاب العقد الثمين، أو سبيل الرشاد، أو الثلاثين المسألة، وفي هذا كفاية لأهل المرحلة الأولى.

وثانياً: بمعرفة الطهارة والصلاة، وكيفي في ذلك كتاب الطهارة والصلاة.

وثالثاً: قراءة الفاتحة وما تيسر معها من قصار السور، ويكون ذلك بحفظ متقن.

وهذه الثلاثة لا بد من معرفتها وتحصيلها لكل مكلف، وهي من فروض الأعيان، فإذا أتقن الطالب هذه الثلاثة، فليتخير له مدرسه الكتب المناسبة لعقلية الطالب وذكائه، وفي هذه المرحلة أعني الأولى ينبغي أن لا يشتغل الطالب بغير تلك الدروس، فلا يدرس في الآجرومية أو نحوها حتى يتقن دراسة ما ذكرنا، وذلك لأن تلك الثلاثة معرفتها وإتقانها فريضة واجبة على كل مكلف، والآجرومية ونحوها ليست كذلك.

الفائدة الثانية: في أهمية دروس الترغيب:

من المهم أن لا يفرط الأساتذة في دروس الترغيب والترهيب، فإنها من الدروس الهامة جداً لكل مسلم، وخصوصاً لطلبة العلم، وذلك مل كتاب كنز الرشاد وشرحه، وكتاب الأربعين

السليقية للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، ونحو ذلك من الكتب الموضوعة في الترغيب والترهيب، وهي كثيرة، وكثير منها مطبوع فينبغي تقرير درس كل يوم، فإن في ذلك حياة القلوب وطهارتها، وتجديد النشاط.

الفائدة الثالثة: في الاعتناء بترسيخ العقيدة:

على المدرس أن يهتم بترسيخ العقيدة الحقة في نفوس الطلبة ولا يقتصر على ما في الكتاب، بل عليه أن يبيّن ويشرح ويوضح محاسن المذهب الزيدي، ويبين للطلبة ما في مذهب أهل السنة كما يسمون أنفسهم من مخازي مثل قولهم: إن الله هو الذي خلق أفعال العباد تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ومثل قولهم بالخروج من النار، والشفاعة لأهل الكبائر، ورؤية علي الكبير تعالى عما يقولون علواً كبيراً، ثم يوضحون ويبينون أن أهل البيت هم أهل الحق بالأدلة، ويكثرون الشرح في ذلك والأدلة، فإن الحال تستدعي ذلك.

الفائدة الرابعة: في الاعتناء بمقام أمير المؤمنين:

على المدرس أن يشرح ويوضح للطلبة أن علياً عليه السلام وصي الرسول ﷺ وخليفته، وأنه أفضل الأمة بعده، وأنه أولى الناس بمقام النبي ﷺ، وأن يوضح ذلك لهم بالأدلة، فإن لم يكن المدرس حافظاً للأدلة، فليستصحب معه كتاب لوامع الأنوار الذي ألفه وجمعه مولانا وشيخنا الحجة سيد أهل البيت مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي أيداه الله تعالى، ثم يقرأ لطلبته تلك الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ ويفسرهما لهم، فإن معرفة حق أمير المؤمنين من تمام الإيمان كما ذكره الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام في مقدمة الأحكام، ولا يحق للمدرس أن يقتصر على ما في العقد الثمين ونحوه، فإن الوقت بما فيه من الفتن والخلافات يستدعي أكثر مما في العقد الثمين وسبيل الرشاد، وفقكم الله وإيانا.

الفائدة الخامسة: الدعوة إلى التحذير من كيد المخالفين:

على المدرس أن يحذر الطلبة من المكائد والحيل والشبه التي يتصيد بها الوهابيون وأشباههم قلوب الناس من المخالفين للزيدية، فعليهم أن يزودوهم بالمعلومات التي تحفظهم من الوقوع في حبال حيلهم ومكائدهم وشبههم، فإن ذلك من النصيحة التي دعا إليها رسول الله ﷺ وحث عليها، بل إن الله تعالى قد جعل النصيحة مقارنة للإيمان، وجعلها أحد الخصال الأربع التي تقي من الخسران في سورة العصر، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر: ١-٣].

الفائدة السادسة: الاستفادة من وقت الفراغ:

على الطلبة الكبار والمعلمين في وقت الفراغ، ووقت العطلة أن يشغلوا بعض وقتهم في مطالعة الكتب المفيدة فإن في ذلك فائدة عظيمة، وسأعدد لك بعض الكتب التي أنصح بالمطالعة فيها:

لوامع الأنوار، التحف شرح الزلف، مجمع الفوائد، المراجعات، النص والاجتهاد، كشف الارتباب، النصائح الكافية، مقاتل الطالبين، مقتل الحسين، الإفادة، مصابيح أبي العباس،

تفسير أهل البيت، الغدير، شرح نهج البلاغة، الأحكام، سيرة الهادي عليه السلام، الحقائق الوردية، الشافي.

فبالمطالعة سوف تترسخ العقيدة، وسيفيد المدرس الطلبة بفوائد كثيرة، فلا ينبغي أن يفرض الإنسان في وقت يمكنه أن يستفيد منه، قال الشاعر:

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا

ليس شيء أعز عندي من العلم لم فما أبتغي سواه أنيسا

الفائدة السادسة: في ثواب الإرشاد والدعوة إلى الله:

الطالب إذا كان قد حفظ القرآن وكان على بصيرة في العقيدة، قد قرأ سبيل الرشاد، والعقد الثمين، وعرف أبواب الطهارة والصلاة، وشيئا من سائر الفقه في الأزهار، فالأولى له إذا طلبوا منه الإرشاد أن يرشد، ولا ينبغي له أن يتعذر بطلب العلم، وقلة تحصيله، فإن العلم إن أراد العلم في الدعوة إلى الله تعالى والإرشاد لعباده، فإن الله سبحانه وتعالى جعل العلم والحكمة جزاء لعباده المحسنين، فقال سبحانه في سورة يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٢٢]، والمعنى أن الله تعالى قد أعطى يوسف العلم والحكمة حين كبر وبلغ مبالغ الرجال، ثم أخبر تعالى أن مثل هذا العطاء الذي أعطاه يوسف يعطيه للمحسنين جزاءً على إحسانهم، فهذا خبر من الله تعالى ووعد للمحسنين بالعلم والحكمة جزاءً على إحسانهم.

والدليل على أن المرشد داخل في زمرة المحسنين الموعودين بالعلم والحكمة قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: ٣٣].

وقد جرت سنة الله تعالى بأن الجزاء يكون من جنس العمل، ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿لَيْنْ شَكَّرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٧]، وفي الحديث المروي: «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم»، «من سمع سمع الله به، ومن يراء يراء الله به»... إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله.

غير أن حصول ذلك مرهون بخلوص النية وصلاح الفؤاد لله رب العالمين، فليحذر المسلم من أن يخالط نيته ما يكدرها، فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

الفائدة السابعة: في التحذير من الإفتاء:

قد تتوارد على المرشد كثير من الأسئلة والاستفتاءات، فالذي نرى له وننصحه به أن لا يقدم على الفتوى، ولكن يسجل المسائل المحتاج إليها، ثم يسأل عنها العلماء، فيكون بذلك قد أفاد السائلين وسلم من تبعات الفتوى.

وهناك مسألة في الزكاة، وهي: أن الزكاة تجب في كل ما أخرجت الأرض من المكيل سواء بلغ النصاب أم لا، وقد عمل بهذا المذهب أهل بلادنا خلفاً عن سلف، وتقلدوه وإلتزموه، فلا ينبغي أن يخطئهم المرشدون بل اللازم على المرشدين أن يقرروهم على مذهبهم، وأن لا

يخطئوهم، فإنها مسألة خلافية قد التزموا فيها أحد القولين، والمقرر للمذهب أنه لا يجوز الخروج من ذلك إلا إلى اجتهد نفسه أو... إلخ على حسب ما هو مذكور في مقدمة الأزهار، فلا ينبغي أن يشوش المرشد على الناس.

الفائدة الثامنة: في التسهيل والتيسير:

اللازم على المرشد أن يسهل التوبة على من يسأل عنها فيحث التائبين على العمل فيما يستقبل، ولا يلزمهم بقضاء الصلاة والصيام وزكاة الماضي، فإن ذلك قد يثقلهم عن التوبة، ويشبطهم عن الرجوع إلى طاعة الله وتقواه.

وهم إذا رسخت في نفوسهم خشية الله، وتمكنت فيهم فسوف يبادرون إلى التخلص من ذلك، فإن سألوا المرشد عن الحكم في ذلك، فالأولى به أن يحولهم إلى العلماء الكبار، فيفتوهم بما يلزم وبما يخلصهم عند الله تعالى، فالمسألة فيها خلاف، وفيها قول غير ما في الأزهار.

الفائدة التاسعة: حق العلماء المحققين:

على المرشد أن يربط الناس بالعلماء، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء كما في حديث المجموع للإمام زيد بن علي عليه السلام، فيحب إليهم العلماء، ويذكر لهم فضائلهم وورعهم، ويحدثهم بما يعرفه عن العلماء.

ثم يحذرهم من العلماء المخربين إن اقتضى الحال ذلك، وإلا اكتفى بذكر العلماء المحققين، والتحذير من مخالفتهم، وكذلك ممن يخالفهم على الجملة.

فإن معرفة العلماء المحققين من أهل البيت فريضة واجبة كمعرفة القرآن ومن هنا يقول الرسول ﷺ في حديث الثقلين المتواتر المعلوم: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»، ويشرح ويوضح لهم هذا الحديث ومعناه.

وكذلك الحديث المعروف بحديث السفينة، وهو قوله ﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم كمثال سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى»، فإن ذلك من أصول الدين الذي يجب معرفته على جميع المكلفين.

ويشرح ويوضح أن الزيدية هم الذين يتمسكون بأهل البيت ولا يخالفونهم، ويوضح لهم من هو المقصود بأهل البيت فمثلاً في زماننا هذا يمثل أهل البيت المولى الحجة مجد الدين المؤيدي رحمه الله ومن معه من العلماء مثل: سيدي حسين بن يحيى الحوثي وإخوته وكل من تابعهم وسار في طريقهم سواء كان من أهل البيت أو من شيعتهم فحكمه حكمهم.

الفائدة العاشرة: في الاعتناء بمسائل الخلاف:

الاعتناء بتوضيح مسائل الخلاف الأصولية، وكثرة الشرح حول ذلك، والتكرير لذلك، وتوضيح أدلة تلك المسائل وتكريرها في المجالس والمناسبات، وذلك مثل مسألة الرؤية، وأن الله ليس بذي مكان وكذلك الجبر والتشبيه، وأن الحق مع علي بن أبي طالب ومع أهل البيت، ومن الأحق بخلافة النبي ﷺ، وتوضيح خطورة هذه المسائل وانهدام إسلام من خالف فيها.

وكذلك مسألة الشفاعة لأهل الكبائر، والخروج من النار، ومن قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وأن الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا فرقة.

فهذه المسائل على المرشد أن يوليها اهتمامه، وذلك لما يترتب عليها، والخطأ فيها ليس بيسير، وهي من أمهات مسائل أصول الدين فلا ينبغي أن يقتصر المرشد على ما في العقد الثمين أو سبيل الرشاد، فالحالة تقتضي توضيحاً أكثر.

الفائدة الحادية عشرة: في شدة التكليف على النفس:

ليعلم المعلم والمرشد والطالب وكل مؤمن أن الله تعالى قد بنا التكليف على ما تكرهه النفس وعلى ما تنفر منه النفس، فالطاعات كلها مكروهة عند النفس، والمعاصي كلها محبوبة عند النفس، ولذا قال النبي ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

غير أن التكاليف قد تتفاوت في الكراهة عند النفس، فبعضها أشق على النفس من بعض، والمعاصي قد تتفاوت محبة النفس لها، وهذا أمر معلوم عند كل مكلف، وبناءً على هذا فإن المكلف يحتاج إلى جهد جهيد ونية صادقة، وعزم قوي لكي يتمكن من امتثال أوامر الإسلام، ويمنع نفسه من معاصي الرحمن، وصدق الله العظيم حين قال حكاية عن يوسف في أحد تفسيرين: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٣].

فالنفس إذاً تحتاج إلى مجاهدة دائمة، وصبر متواصل، لتقبل أحكام الله تعالى، وتحتاج مع ذلك إلى التخويف لها بعذاب الله ونكاله، وإلى الترغيب لها فيما أعد الله للمتقين في جنات النعيم، وإلى استماع المواعظ والذكر ومجالسة الصالحين.

ولا بد من تكرير ذلك على النفس، ثم الاستعانة بالله تعالى، وكثرة الدعاء والاستغفار، مع صدق النية وصلاح الطوية فلن يخيب المرء، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩]، وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر كما ورد في الأثر.

ومن التكاليف الشاقة على النفس في أمة محمد ﷺ تفضيل الله تعالى لأهل بيت نبيه ﷺ، والتكليف لهذه الأمة به وإيجاب مودتهم ومتابعتهم، فهلك بسبب هذا التكليف الشاق من هلك، وسعد به من سعد.

وحقاً فإنه لن يقبل هذا التكليف إلا من امتحن الله قلبه بالإيمان؛ لأن المؤمن الحق هو الذي يؤثر طاعة الله على هوى نفسه، ويؤمن بصدق وعده ووعيده.

ولقد طاشت لهذا التكليف عقول السابقين الأولين، وزلت له أقدامهم، وقاموا بسبب ذلك وقعدوا، ثم من بعدهم وإلى يوم الناس هذا امتنعوا من هذا الحكم الإلهي وتأبوا ودافعوا وعاندوا، ولم يكسبهم صنيعهم غير الهوان والخسران، والعاقل اللبيب إذا عرف أن هذا الحكم من الله تعالى استسلم لحكم الله ورضي به، وعرف أنه لا طاقة له بحرب الله ومعاندة ربه ومخاصمة خالقه، فحضي بسعادة الدنيا والآخرة، أعزه الله في الدنيا ورفعاه، وزاده حسن الذكر جزاء تواضعه وخضوعه واستسلامه لأحكام الله تعالى هذا في الدنيا، أما جزاؤه في الآخرة فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين.

هذا، وإذا نظرنا إلى ما هو السبب، وما هي الغاية التي أدت بالمتأبي ودفعته إلى رد مثل هذا الحكم الإلهي، فإننا نجد أن ذلك هو شعوره بأن في ذلك خطأ لكرامته، واستسلاماً للذلة والمهانة، فهو يتخيل أن قبوله لهذا الحكم اعتراف منه على نفسه بالمهانة والذلة والضعف والهوان، فهو يطلب من وراء تأبيه لنفسه الكرامة والرفعة والعزة، وفي الحقيقة أن ذلك مطلب حسن يطلبه كل عاقل، غير أنه أخطأ فطلب العزة من غير وجهها، فلم يحصل إلا على الهوان والذلة والخسران، ولو عرف هذا المتأبي قدر نفسه وعرف قدر خالقه وما يستحقه من التعظيم والطاعة وعرف صدق ثوابه وعقابه، لم يقع فيما وقع فيه، ولحصل على العزة المطلوبة والكرامة والرفعة، ولنال ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

الفائدة الثانية عشرة: في معرفة الإنسان لقدر نفسه:

وهذه الفائدة تكميل للفائدة التي قبلها، وهي في معرفة الإنسان لقدر نفسه، وفي معرفة ذلك فائدة كبيرة ففي الأثر: «من عرف قدر نفسه لم يهلك». العاقل لا يتجاوز بنفسه المنزلة التي وضعه الله فيها وجعله عليها، فالإنسان عبد من عبيد الله خلقه الله وسواه وغمره بنعمه التي لا تحصى، ثم أخبره على السنة رسله بالسبب الذي خلق من أجله.

فمن عرف أنه عبد لله ومملوك له جل وعلا، وأنه في قبضة قدرة الله، وأنه ضعيف لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، وأنه في حاجة إلى رحمة الله وفضله ورزقه وعنايته ورعايته وحفظه وألطافه.

وعرف أن بطش الله شديد، وأخذه أليم، وأنه لا طاقة له بذلك، وأنه لا يقيه من ذلك إلا الاستسلام والطاعة إذا عرف الإنسان ذلك فإنه لا يورط نفسه فيما يوبقها، ولا يتجاوز الحدود التي حددها له سيده العلي الكبير.

الفائدة الثالثة عشرة: في الطريق إلى السلامة:

وهي في تتميم ما قبلها: الإنسان قد يكون على تمام المعرفة بقدر نفسه، وبما يجب لله تبارك وتعالى من التعظيم والطاعة، غير أنه قد يعتريه النسيان، وتستولي عليه الغفلة، فتستفزه نفسه الأمارة بالسوء فتحمله على الحسد والعجب والكبر، وتورطه في الجرائم واقتراف المآثم.

والطريق إلى السلامة من ذلك هي ذكر الله سبحانه وتعالى ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥]، والصلاة كما روي فرضها الله لإقامة ذكره، فالذكر هو الذي يقيد النفس، ويكبح جماحها، فإذا حدث الإنسان نفسه بمعصية الله فليذكرها بقدرة الله وبعذابه ونكاله وما أعده للعاصين، ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠١]، فتذكر عظمة الله وقدرته وعذابه وبطشه مطردة لوساوس الشيطان وهماهم النفس الأمارة بالسوء.

الفائدة الثالثة عشرة: مراعاة المشاعر:

على المرشد أن لا يصطدم بإمام القرية ومؤذنها إن كان، وأن لا يقلل من معنويتها، وأن يستبقي مودتها ويوليها جل احترامه.

وإذا كان عندهما بعض الأخطاء، فليعلمهما بلين وبرفق وحدهما وبعد تفرق الناس، أما بين الناس فلا ينبغي ولا يصلح، وكل هذا من أجل المصلحة في بقاء الإرشاد سليماً من المعارضة والمقاومة، هذا هو الأرجح، وإن كان الواجب تقديم الأقرأ والأفقه، غير أن الواجب إذا عارضته مفسدة راجحة كان الأولى والأرجح درء المفسد، وهذه قاعدة أصولية قضت بها العقول، وأطبق عليها أهل الأصول.

الفائدة الرابعة عشرة: في التزام الوصية:

على المرشد في أي بلاد كان أن لا يتجاوز وصية العلماء، وذلك بأن لا يتدخل فيما لا يعنيه، فلا يتدخل في الترويج لمرشح دون مرشح، ولا يستغل وعظه في التنقيص من الحزب الفلاني والتشجيع للفلاني.

اللازم عليه أن يتقيد بالمهمة التي هو فيها، وذلك تعليم الناس معالم الدين وتذكير الخلق بوعد الله ووعيده، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١].

الفائدة الخامسة عشرة: في الأدب النافع:

إذا كان أهل المحلة بيوتات شتى وأهواءهم مختلفة فمن الحكمة أن لا يظهر الميل إلى أحد البيوتات، بل يجعلهم في منزلة واحدة، فإنه إذا أظهر الميل إلى أحدهم حقد عليه الآخر، ولا ينبغي له أن يصدق بعضهم في بعض.

وعليه أن يظهر اهتمامه بكل منهم، ويكرر في المجالس أنه مرسل إليهم جميعاً، لا أنه مرسل إلى ناس من دون ناس.

وعليه أن يتحمل ويتصامم عن سماع كلام الجاهلين، ويصبر على أذاهم، فقد جاء في القرآن في وصية لقمان لابنه: ﴿يَبْنِىْ اِقِمِ الصَّلَاةَ ءَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؕ ءَاصِرٌ عَلَىٰ مَا ءَصَاكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة لقمان: ١٧]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩]، فليلتزم المرشد بهذه الآداب الإلهية، ويتقيد بأدب القرآن إذا أراد النجاح في عمله، والوصول إلى مرضاة ربه وثوابه.

الفائدة السادسة عشرة: في المراقبة:

إذا كان المعلم في محلة واستمر فيها وأقبلوا إليه وتعلموا وتفقهوا، فلا يدعوه ذلك إلى تركها بحجة أنهم قد تعلموا فقه الطهارة والصلاة، بل الأولى أن يستمر فيهم، وأن يوليهم جل اهتمامه، وأن ينتهز فرصة إقبالهم.

فإن حالت بينه وبينهم الأعذار التي قطعت عليه الاستمرار فيهم، فإن من اللازم عليه أن يتعاهدهم إسبوعياً أيام العطلة يذكرهم ويعظهم ويعلمهم ويرشدهم، فإن الشجرة إذا لم

يتعاهدها صاحبها في أيامها الأولى بالسقي والعناية بها ذبلت وييست وتفتت وذرتها الرياح، وهكذا شجرة العلم التي يغرسها المرشدون.

الفائدة السابعة عشرة: في التخفيف والتيسير:

مما يليق بالمرشد ويجدر به أن يخفف على الناس في وقت التعب أو وقت الشغل والضجر، فلا يطول في الصلاة والراتب، وأن يجعل ذلك على حسب الحال، ولا يؤخر صلاة العشاء بل يصلّيها في أول الوقت، وذلك لما عليه أهل القرى والبوادي من التعب في النهار، ومن أراد القراءة فيمكن استدراك ذلك بعد صلاة العشاء، وكذلك ينبغي التخفيف في كل الصلوات، فإذا أحس بالرغبة فلا بأس، ولا ينبغي أن يستنكر على من يجمع بين الصلاتين فيشدد في ما وسعه رسول الله ﷺ فلمن فعل ذلك قدوة من أئمة أهل البيت ﷺ والمسألة خلافية. وعلى الجملة فالأولى بالمرشد الموافقة للناس والنزول عند رغباتهم اللهم إلا فيما لا يتوافق مع الشريعة السمحة.

هذا، ومما يجدر به أن يهتم بأمورهم وبصلاح دينهم ودنياهم وأن يكثّر من الدعاء لهم بصلاح دينهم ودنياهم وبما فيهم وبصلاح أولادهم وغير ذلك، ويجهز بذلك لهم، فإن ذلك سيكسب ودهم وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]، وقال تعالى عن قرائن الصالحين: ﴿وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٩٩]، فعلى المرشد أن يتأدّب بهذه الآداب القرآنية.

الفائدة الثامنة عشرة: في ترك ما فيه ملائمة:

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: (دع ما عند الناس استنكاره وإن كان عندك اعتذاره)، قد يستنكر في بعض البلدان أن يذكر خطيب الجمعة بعد الصلاة على النبي ﷺ ذكر زيد بن علي، وذكر القاسم بن إبراهيم، وذكر الهادي يحيى بن الحسين عليهم جميعاً السلام، فإذا كان الأمر كذلك فالأولى أن يترك ذكرهم خصوصاً ويصلي عليهم عموماً بعد ذكر الخمسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم جميعاً وينبغي له أن يتحسس قبل أن يخطب هل يذكرونهم أم لا، حتى لا يتوصلوا بذلك إلى الطعن في المرشد ويستغل المفسدون بذلك الفرصة. وينبغي أن لا يجعل المرشد هذا قاعدة عامة بل المقصود أن يترك الشيء المستحب ونحوه أما الواجبات المفروضة فلا ينبغي تركها، وإن حصل الاستنكار.

الفائدة التاسعة عشرة: في الحاجة إلى التذكير:

مما ينبغي أن يركز عليه المرشد لطلبته هذه المواضيع التي اشتمل عليها هذا الكتاب، فيذكرهم ويحذرهم ويكرر عليهم ولا سيما ما يحصل بين الطلبة من الفتنة والاختبار، ويوجههم إلى ما يقيهم من ذلك البلاء مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [سورة البقرة: ٤٥]، وفي الحديث: كان ﷺ إذا حز به أمر فرغ إلى الصلاة ويحثهم على الاستكانة لله والخضوع له وشدة الافتقار إليه تعالى، وإظهار الحاجة إلى الله تعالى في كل شيء، والتخلي من حول النفس وقوتها إلى حول الله تعالى وقوته، والاعتماد عليه، والتوكل في كل الأمور عليه، وطلب الحوائج من عنده، ويعتقد كل ذلك في قرارة نفسه، ويعرف أنه عبد لله ضعيف لا يملك إلا ما ملكه الله،

ويوجههم إلى الإكثار من الدعاء ومن الاستغفار ومن الذكر لله بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وقراءة القرآن والصلاة على النبي ﷺ، وعلى رأس ذلك طلب العلم وتعليمه ونشره، ويرشداهم كذلك إلى أبواب الخير، ويحذرهم من طرق الشر وخطوات الشيطان، ويحذرهم من كفران الذنوب، وهذا كله للطلبة خصوصاً ولغيرهم عموماً.

الفائدة العشرون: في التسهيل على المبتدئين:

ينبغي على المرشد أن يتساهل مع الطلبة في البداية، فلا يشدد عليهم في التحصيل، والحفظ غيباً؛ لأن ذلك ربما كان سبباً لنفورهم عن طلب العلم، وكذلك يتساهل معهم في الأدب فلا يشدد عليهم في الالتزام بالأدب والإذن والغياب ونحو ذلك، ولا يعاتبهم على شيء من ذلك حتى إذا أحس برغبتهم في العلم علمهم الآداب تدريجياً على حسب الحال.

وكذلك يفعل المرشد مع الكبار فلا يعنفهم، ولا يشكي منهم عند أحد بالإهمال أو بعدم اهتمامهم وهم يسمعون، بل لا يذكرهم إلا بالخير والاهتمام ويثني عليهم بما لا يخل بالصدق، فإن ذلك سوف يزيدهم إقبالاً عليه، ويزيدهم همة في تعليم أولادهم.

ومما يزيد في إقبالهم عليه أن يكثر من استشارتهم وإذا أراد زيارة أهله فيستأذنها، ويعود مرضاهم، ويدعو لهم، ويعرف أسماءهم وبيوتهم، ويسأل عن الغائب ويدعو له، ويسلم عليهم ويصافحهم، ويشمت العاطس، وأغلب ذلك قد جاءت به السنة الصحيحة

الفائدة الحادية والعشرون: من سمع سمع الله به:

على المرشد إذا وصل البلاد، وقد كان فيها من قبل مرشد آخر، أن لا ينتقص ذلك المرشد الأول إما بالجهل أو بعدم البصيرة في التدريس، أو بالإهمال سواء كان منه ذلك أم لم يكن، بل يثني عليه إن وجد مجالاً للثناء، وإلا فليسكت وقد يروي عنه أهل البلاد أنه قال كذا وكذا، وأفتاهم بكذا وكذا، فينبغي أن لا يتسرع المرشد إلى نسبة الغلط إلى ذلك المرشد الأولى، وتنقيصه بسبب ذلك، فإن نقل العوام كثيراً ما يكون على غير الواقع، فأكثر ما تكون رواياتهم مبنية على الوهم والغلط.

وليحذر المرشد كل الحذر من ذلك، فإن النفس أمارة بالسوء، فإنه وإن كان قد أخطأ الأول فلا تطاوع نفسك في التنقيص منه، فقد تحدث الإنسان نفسه بدم ذلك المرشد الأول وتنقيصه، وقصدها في ذلك أن ترتفع وتكسب المكانة عند الناس وتنال الشهرة، وفي الحديث المروي: «من سمع سمع الله به».

هذا، ولن ينال الإنسان الرفعة والشهرة بما لا يجوز بل سيعاقبه الله بنقيض قصده، كما في هذا الحديث وغيره من الأحاديث الكثيرة المروية عن النبي ﷺ.

الفائدة الثانية والعشرون: في روح العبادة:

من المهمات في الإرشاد تعليم الصلاة والطهارة، وقد وضع لذلك كتب مثل الأزهار، وعلوم الدين، وكتاب الطهارة والصلاة، وقد جمعت هذه الكتب كل ما يتعلق بالطهارة والصلاة، غير أنه بقي شيء لم يذكر في هذه الكتب، وهذا هو ما أريد أن أنبه عليه في هذه الفائدة فأقول:

ينبغي بالإضافة إلى ما في تلك الكتب أن يعتني المرشد بتعليم المصلين لمعاني الصلاة، فيفسر لهم ألفاظ التوجه، ويحثهم على استحضر ذلك التفسير وتلك المعاني التي اشتمل عليها التوجه، وكذلك ألفاظ الفاتحة والسورة، وألفاظ التسبيح والتكبير والتسميع، وألفاظ التشهد، ويفسر لهم الحكمة في الركوع والسجود والقيام، ويعلمهم أن الصلاة لا تكون صلاة كاملة إلا بذلك، ويخبرهم أن ذلك هو كالروح للصلاة، وأن الصلاة بدون ذلك كجسد بلا روح.

فإذا لم يكن المرشد يعرف تفسير ذلك كاملاً فعليه بكتاب كنز الرشد، فتفسير ذلك في أوله، وهذا هو الخشوع الذي مدح الله صاحبه في سورة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [سورة المؤمنين: ١-٢]، فلا ينبغي أن يقتصر المرشد على ما في الأزهار، فإن الصلاة التي اشتملت على ما ذكرنا من استكمال الطهارة واستكمال شروطها وأركانها وفروضها ومسنوناتها، واستحضر المصلي فيها معانيها، فإنها إن شاء الله صلاة مقبولة، تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وسينال صاحبها ما وعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في كتابه الكريم

غير أن ذلك مشروط بشروط خارجية، منها: خلوص النية لله رب العالمين لا يخالطها ما يفسدها من الرياء وحب الثناء، والوجاهة، أو نيل مقصد أو غرض.

وكذلك يشترط فيها أن يكون صاحبها من من لا يفرط في زكاة ماله، فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل الصلاة ممن منع الزكاة، وأن يكون صاحب هذه الصلاة من التائبين وقائماً بما أوجب الله تعالى عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) [سورة المائدة: ٢٧].

الفائدة الثالثة والعشرون: في معالجة العصبية:

غالباً ما يكون بين البيوتات منافسة ومحاسدة وعداوة باردة، وخصوصاً عند القبائل أثارها الحمية والعصبية، يرثها الأبناء عن الآباء، وقد لا يشعر بها المرشد ولا الغريب، فعلى المرشد أن يركز في مواعظه على الحسد والحقد، والوعيد على ذلك، وما ورد فيه في كتب المواعظ، ويركز على حرمة المؤمن، ووجوب المؤاخاة والمحبة والمودة بين المؤمنين.

ويذكر الوعيد الشديد في ترك ذلك، ويذكر ما يرغب في ذلك من الثواب الجزيل ومن الحسن أن يقرأ لهم ما ورد في ذلك، وما يتعلق بذلك في كتب الوعظ والإرشاد مثل كنز الرشد وشرحه، والصفوة، وشرح الأربعين ونحوها.

وأقصد أن يقرأ الأبواب التي لها علاقة بما ذكرنا، وأن يتتبع الأبواب المفيدة في ذلك، ولا يفرط في هذا الموضوع في أي موعظة أو خطبة جمعة، فإن هذا الداء مما لا يكاد تخلو عنه قبيلة، وعليه أن يعلم الطلاب الأخوة الإسلامية، وأن يزيل من نفوسهم تلك العقدة الجاهلية، والله الموفق والهادي.

الفائدة الرابعة والعشرون: الدعوة إلى العلم والعمل:

مما ينبغي أن يوجهه المرشد إلى الناس أن يعلموا أن الساعي على نفسه وأولاده وأبويه من الموعودين بالثواب الكبير كما رواه الإمام زيد بن علي وغيره، وأنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، غير أنه مطالب بطلب العلم، ومطالب بتعليم أولاده، فإن وجد المرشد في

المحلة وجب على أهل تلك المحلة جميعاً أن يتعلموا عند المرشد معالم دينهم، ثم يعلموا نساءهم ما تعلموه، وإن لم يكن في المحلة مرشد فإنه يلزم أهل تلك المحلة أن يبعثوا من أولادهم إلى أهل العلم ليتعلموا وليعلموا أهاليهم إذا رجعوا إليهم، وقد قال الله تعالى في هذا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢]، ولا ينبغي أن نلزمهم جميعاً بالنفور لطلب العلم، فإن ذلك مما لا يتأتى، ولكن نرشدهم إلى اللازم وهو ما قدمنا.

الفائدة الخامسة والعشرون: في العجب:

ينبغي الحذر من العجب والتحذير منه، وهو أن ينظر الإنسان إلى نفسه نظر الإعجاب بها والرضا عنها، أو أن يحكم لها بالزكاة والطهارة والعفة، أو يقول مقالة الراضي عن نفسه: قد قمنا بالواجبات واجتنبنا المحرمات ظاناً أن ذلك هو غاية الكمال، أو نحو ذلك مما يدل على إعجاب المرء بنفسه والرضا عنها، وهذا الذي ذكرنا هو بعض أمثلة للعجب وليس بتحديد، قد يحصل مثل هذا عند الطلبة وعند المعلمين والمرشدين وعند غيرهم، وقد لا يخلو منه مسلم.

ومن مظان وقوع ذلك أن يكون الطالب أو المرشد في بلد فينظر فلا يقع بصره إلا على من هو أقل منه في التقوى بمراحل أو على مفرط في فرائض الإسلام، أو مضيع لها، أو على غافل شديد الغفلة عن ذكر الله وطلب العلم، فيرى لنفسه منزلة ومكانة بسبب ذلك.

والذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن عند مثل هذه الحالة أن يتهم نفسه بالتقصير في طاعة الله، ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [سورة النجم: ٣٢]، ويروى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (إن المؤمن لا يمسي ولا يصبح إلا ونفسه عنده ضنون)، أو كما قال، وضنون بمعنى متهمة، والمعنى أن المؤمن لا يرضى عن نفسه أبداً بل لا يزال المؤمن دائماً متهماً نفسه بالتفريط في حق الله والتقصير في ذكره، فهو دائماً يلوم نفسه ويذمها على تفريطها وتقصيرها.

والسبب الذي يؤدي إلى الرضا عن النفس هو الجهل، ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٢٨]، والمقصود بالعلم هنا هو استحكام المعرفة بالله تعالى، وصدق وعده ووعيدته، فإذا ملأت عظمة الله قلب الإنسان فإنه لا يستكثر عمله ولا يعجب به.

هذا، والعلم بالله تعالى ليس حكراً على الدارسين، بل ذلك مهياً للدارس وغيره والقارئ وغيره، والذي يُحصّل المعرفة بالله تعالى، وبما يجب له ثم الخشية منه شيئان اثنان، هما: التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيما أنعم الله على الإنسان به:

الأول: التفكير في مخلوقات الله تعالى:

إن القرآن الحكيم قد لفت العقول والأذهان إلى الميادين التي يسرحون فيها أفكارهم نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ [سورة يونس: ٣١-٣٢]، وعلى الجملة فلا يقع بصر الإنسان على شيء إلا وفيه آية على وجود القادر العظيم.

ولله در القائل:

فيا عجباً كيف يعصى - الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وكفى دليلاً بما في الإنسان من خلق عجيب يدل على القادر العليم، كيف وقد ملأ الله الكون بالآيات البالغات والبراهين القاطعات، قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: ٥٣]، هذا هو الشيء الأول.

أما الثاني وهو: النظر في نعم الله على الإنسان:

كذلك قد ذكر الله عباده في كتابه بنعمه عليهم، ودعاهم إلى ذكرها والنظر فيها مثل نعمة الخلق والسمع والبصر والفؤاد واللسان والشفيتين: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٠]، ومثل نعمة الصحة والعمر والرزق والحفظ والكلائة ونعمة النساء والبنين والحفدة، وإلى ما لا يحصي عدها إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [سورة النحل: ١٨].

نعم، فهذان الشيئان مقدوران لكل ذي عقل، وهما الطريقتان إلى حصول العلم بالله وبما يستحقه من الطاعة والخشية، فعلى المرشد أن يوضح للناس طريق المعرفة بالله تعالى وذلك فيما ذكرنا من التفكير في المخلوقات وتعدد نعم الله تعالى والتذكير بها.

الفائدة السادسة والعشرون: في الصبر وذم العجلة:

قد يلقي المرشد في بعض البلدان إقبالاً واستجابة، وقد يلقي في بلد آخر خلاف ذلك، فلا يدعوه ذلك إلى الانصراف عنهم، بل الذي ينبغي أن يصبر ما استطاع، وأن يسعى في ذلك بسنن الأنبياء صلوات الله عليهم، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومما حكاها الله عنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [سورة نوح: ٥-٩]، إلى آخر الآيات.

وقد عاقب الله نبيه يونس عليه السلام حين انصرف عن قومه عندما لم يستجيبوا له، فسجنه في بطن سمكة، ثم قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة القلم: ٤٨]، وقال تعالى له ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [سورة

الأحقاف: ٣٥].

الفائدة السابعة والعشرون: في التحمل والصبر:

ينبغي أن يوطن المرشد نفسه على التحمل والصبر والتسامح، فلا يؤاخذ على الكلمة الجافة، ولا يقابل الجلافة بالجلافة كيلاً بكيل، يداً بيد، ولا يزيد كما هو شأن الذين لا يعلمون، ولا يعنف من أساء الأدب وخصوصاً إذا كان صادراً عن جهالة، ولا يكثّر في عتاب من فعل ذلك، فإن ذلك مما ينفر القلوب ومن هنا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعِظْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]، وسيرة رسول الله ﷺ معلومة ومشهورة، فما كان ﷺ يقابل الأذى إلا بالإحسان، والقصص في ذلك معروف ومشهور، بل كان ذلك خلقه ﷺ حتى مع المشركين الذين يبالغون في أذاه فقد روي أنه قال في أحد المواقف: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، وقد روي عن أنس ما معناه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء لم أصنعه اصنعه، وما قهرني ولا نهمني أو كما قال.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩]، وقال ﷺ فيما روي عنه: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر»، والمحفوظ من سيرته ﷺ أنه ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها، ولما قال له أعرابي جلف وهو يقسم الغنائم: اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله، فقال ﷺ: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل»، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»، «إن الله رفيق يحب الرفق كله»، «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»، وروي أن أول خطبة خطبها ﷺ يوم دخل المدينة: «أيها الناس أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وألينوا الكلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا جنة ربكم بسلام».

وفي وصية أمير المؤمنين لابنه الحسن عليه السلام وكان هو الناصح الشفيق: (يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك... إلى أن قال: ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك).

فتهجين الناس، وهتك أستارهم، وتقبيح أفعالهم، وذمهم بسوء الأدب خلق ذميم، ونزغة من نزغات الشيطان الرجيم، ولا يعد ذلك من النصيحة، وليس بطريق للتعليم والتربية، فخير الهدى هدي محمد ﷺ، بل إن ذلك من أخلاق أهل الجاهلية التي حاربها الإسلام أشد المحاربة، قال شاعرهم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أين هذه الأخلاق الجاهلية من أخلاق الرسول ﷺ التي أدبه ربه في قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٨]، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، فزيادة على لين جانب النبي ﷺ وخفض جناحه أمره الله تعالى بالعفو عن المسيء والاستغفار لهم ثم مشاورتهم لتطيب أنفسهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

فالعاقل قبل أن يتكلم بالكلمة ينظر فيها ويزن غيره بنفسه، وهل يجب أن تقال له تلك الكلمة، فإن رضىها لنفسه خاطب بها غير، وإلا فلا، وفي المثل الشعبي: (عس جلدك وجلد غيرك سواء).

وليس العلم والإرشاد والمكانة في قلوب الناس والاحترام والتقدير لأهل العلم والإرشاد ليس ذلك بمبرر للتشنيع بالناس وتقييح آدابهم والتشهير بهم وهتك أستارهم، فالقبیح قبیح ممن كان.

نعم، التواضع والرفق واللين وحسن الحديث من أحسن الأخلاق وأرفعها، غير أنه من أهل الرئاسة والشرف والعلم أحسن وأرفع والبذاءة في الكلام وسوء الأدب قبیح غير أنه من أهل الرئاسة والشرف والعلم أقبح وأقبح، ويزداد قبحه ويفحش إذا صدر عن أهل الدعوة إلى الله والإرشاد في سبيل الله فإن كان ذلك الأدب السيئ وتلك البذاءة مستعملاً في الدعوة كان ذلك أبعد، وقد ضرب الله تعالى المثل للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة في سورة إبراهيم فلا تطول بذلك.

فحسن الأدب في الحديث له منزلة كبيرة في الإسلام، تكرر الحث عليه في القرآن وفي السنة، والأولى بأخذ هذا الأدب العالي أهل العلم وطلبة العلم والمرشدون والدعاة إلى الله تعالى وإلى دينه.

ونقول: إن سوء الأدب والفحش في الكلام والبذاءة لا خير في ذلك البتة ؛ لأن ذلك يؤدي إلى مفساد:

١- النفرة عن المرشد إذا كان شديد الجانب يحاسب على النقيير والقطمير.

٢- المخالفة لتأديب الله تعالى، والمخالفة لأدب النبي ﷺ .

٣- مقت الناس، وذمهم لمن كان كذلك.

ولا أدري ما هي المكاسب التي يتطلبها المرشد بالبذاءة والاسترسال في الأعراض؟ والتهجين لهم؟ ربما أنه يقصد من وراء ذلك أن يوصف بالشدة والقوة والمهابة عند محبيه وشيعته وغيرهم. ولكن ذلك خلاف ما وصف الله به المتقين في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، وفي قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

وإذا كان هذا يطلب من وراء ذلك السيادة والشرف فهذا ليس من مظانها، فقد قيل: ما ساد إلا حلیم، فالعلم والصفح والعفو من مقومات السيادة والشرف التي لا تحصل إلا به، وهي الصفة التي لف الناس بها النبي ﷺ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ الْخَلْقَ عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لَكُم مِّنْ حَوْلِهِمْ قَوْمٌ يَتَّبِعُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، فلو لا هذا الخلق العظيم لنفر الناس عن النبي ﷺ وانفضوا من حوله، وقال أحد الشعراء وهو العباس بن الأحنف:

تحمل عظيم الذنب من تجبه وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظال

فإنك إن لم تغفر الذنب في الهوى يفارقك من تهوى وأنفك راغ وقال الآخر، وهو أبو سليمان الخطابي:

ولا تغل في شيء من الأمر وأبق فلم يستوف قط كري

فسامح ولا تستوف حقل كله ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد

ولا يغتر المرشد من تحمل الناس له وسكوته، فما ذاك إلا أنهم أكثر منه تكرماً، وأفضل أدباً، وأوسع حلاًماً.

والمفروض أن يكون الأمر على العكس من ذلك فالله المستعان، ومنه تعالى نستمد الإعانة والتوفيق والتسديد، إنه ولي ذلك.

الفائدة الثامنة والعشرون: العلم للناس جميعاً:

على المرشد أن يلقي في روع الناس وأهل البلد التي هو فيها أن العلم موضوع للناس جميعاً، للكبار والصغار، وللقارئ وغير القارئ، وأن العلم ليس بحاجة إلى القراءة والكتابة أو صغر السن، وأن الشيء الذي يحتاج إليه العلم هو شيان اثنان: أحدهما العقل والثاني السمع، وأن التعلم فريضة واجبة على كل مسلم عاقل سامع، فالعقل لا بد منه، وكذلك السمع؛ لأنه لا يمكن أن يعرف ما يقال إلا به، إذا توفر في الإنسان هذان الشيان فطلب العلم واجب سواء كان صغيراً أم كبيراً، قارئاً أم غير قارئ، ذكراً أم أنثى.

أما من كان أصم لا يفهم ما يقال، فلعل الله تعالى يعذره؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا﴾ [سورة الطلاق: ٧]، فعلى المرشد أن يحث الناس جميعاً على العلم كلاً على مستواه، فأهل الذكاء والقراءة والكتابة بالطريقة المعروفة، والكبار بالاستماع، وكذلك أهل الشواغل والتقصير يهتمهم ويحثهم على الاستماع على الأقل، ويجعل ذلك في أوقات فراغهم.

الفائدة التاسعة والعشرون: التفاوت في الذكاء:

قد يكون للمرشد عدة من الطلبة، يستمرون في الدراسة، وربما كان بعضهم من أهل الذكاء والرغبة والقدرة على دروس أكثر عند ذلك يلزم المرشد أن يزيد هؤلاء الأذكياء دروساً إضافية، ويعتني بهم عناية خاصة، ويحملهم من الدروس ما قدروا عليه.

ومن الخطأ في الرأي والخطأ في التدبير أن يقتصر بهم على تلك الدروس العامة مع قدرتهم على أضعافها، ومع سعة أفهامهم، ورغبتهم الكبيرة، وإذا كان للمدرس عدة من الطلبة، فإنهم لا يكادون يخلون من أهل الذكاء وجودة الفهم، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لا ينبغي أن يفرط فيهم ويضيع وقته ووقتهم، فإن الذكي الحريص قد يستفيد من العلم في شهر أكثر مما يستفيدة غير الذكي في سنة هذا، والذي حملني على خط هذه الفائدة أنني رأيت في بادية بعض الأذكياء الراغبين أشد الرغبة في العلم، وسألناهم عن المقروآت فإذا مقروآتهم لا تتجاوز العقد الثمين في عدة أشهر، عند ذلك استأت من ذلك وسألت عن السبب؟ فقالوا: الأستاذ يدرسنا مع زملائنا

دروساً على مستوى زملائنا، ولا أمكن مطالبة المدرس بزيادة الدرس ؛ لأن زملاءنا لا يتحملون ذلك فاضطررنا إلى مسايرتهم وتصغير الدرس.

فمن هنا رأيت من اللازم على المرشد أن يخص الأذكياء من طلبته بدروس إضافية زيادة على الدروس العامة، ويعتني بهم عناية خاصة، ويوليهم جل عنايته، ولو لم يكن للمرشد إلا تلميذ واحد من أهل الذكاء والحرص والرغبة والدين لكان أهلاً لبقاء المرشد من أجله، وفي المثل النبوي: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»، وفي المثل الشعبي: (مائة بواحد وواحد بمائة). فإذا صادف المرشد في أي محلة واحداً كما وصفنا، فقد حصل على البغية المنشودة، وعلى الغرض المطلوب، وكان الحال مع ذلك كما قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وذلك لأن من كان كذلك، فإنه مؤهل لحمل العلم وإصلاح البلاد والعباد، وقد قال الشاعر في ذكر مقومات العلم التي لا يحصل إلا بها:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأتيك عن تأويلها بيان
ذكاء وحرص وافتقار وغربة وتلقين أستاذ وطول زمان

الفائدة الثلاثون: موقف المؤمن من العصاة:

إذا كان المرشد في أي بلد، وكان في ذلك البلاد بعض من أهل الفسوق والعصيان، فلا ينبغي أن ينفر منهم، بل اللازم عليه أن يظهر الحفاوة لهم والاحترام، والأخلاق الطيبة، ويجلس معهم، ويتلطف لهم ويتلين، ثم يعظهم ولكن بعد أن يحس منهم بالاحترام له والتقدير، وفي ظني أن التلين لهم واستعمال الأخلاق الطيبة هو الذي سيجرهم إلى التوبة والإقلاع، فبالأخلاق العظيمة جر النبي ﷺ الناس إليه، وجذبهم إلى محبته والدخول في دينه ﷺ، وتاماً كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، ومن هنا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]، فهذا هو الواجب على المتصدي للإرشاد.

فإن قلت: إن المعروف في حق أهل المعاصي هو المقاطعة، وإظهار العداوة كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآية [سورة المجادلة: ٢٢].

قلت وبالله التوفيق: المسألة مع أهل الفسوق والعصيان ذات أحوال:
الحالة الأولى: هو ما ذكرناه في أول هذا المبحث.

الحالة الثانية: بعد أن تمر المرحلة الأولى، ويطبقها المرشد بما في ذلك.

استعمال المواعظ هنالك قد يستحي هذا الفاسق ويظهر الإقلاع والتوبة، وإن لم يكن في الواقع كذلك.

الحالة الثالثة: أن يقلع ويتوب حقاً ظاهراً وباطناً، وتظهر عليه علامات ذلك.

الحالة الرابعة: أن يكف هذا الفاسق من التظاهر بالعصيان ولا يظهر التوبة والإقلاع، ولكنه قد استحيى، فكف ظاهراً، وأبدى احترامه للمؤمنين، ولم يعانداهم، ولم يعاداهم، ولم يقف في طريقهم.

الحالة الخامسة: أن لا يكف هذا الفاسق عن فسوقه، بل ما يزال يتظاهر بالعصيان، بعد التلین له والتلطف له، وبعد كل ما ذكرناه في أول المبحث، فهذا هو الذي تجب معاداته ومقاطعته حتى يقلع عن فسوقه وعصيانه.

فهذه خمس حالات يفترض حصولها، ولكل حالة حكم، ففي الحالات الأربع الأول، لا تنبغي المعادة والمقاطعة، وفي الحالة الخامسة تنبغي المعادة والمقاطعة حتى يقلع ويتوب. والدليل على كل ما ذكرناه، أما في الأولى فقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، وسنة النبي ﷺ وسيرته في الدعوة إلى الله تعالى، والظاهر أنه إجماع أهل البيت ﷺ، فإنهم قد قالوا: إنه لا يجوز أن يشاد أهل المنكر إلا بعد فشل الدين، وعدم نجاحه في تغيير المنكر.

وأما في الثانية: فسيرته ﷺ في المنافقين وسنته معهم، فإنه ﷺ لم يكشفهم العداء، وإن كان القرآن قد كشف ثوب الستر عن بعضهم غير أنه قد بقي كثرة كثيرة لم يكشفهم القرآن ولم يفضحهم، ومنهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ أَلْفَاقٍ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة التوبة: ١٠١]، وهؤلاء أجرى عليهم النبي ﷺ حكم المؤمنين.

ولعل السر في كشف الستر عن بعضهم هو أنهم كانوا يمكرون بالنبي ﷺ في الخفاء، ويكيدون للإسلام سراً، ويتعاونون مع أهل الكتاب في السر أما بقية المنافقين الذين لم يكشف لهم القرآن سترأ، وأجرى عليهم النبي ﷺ حكم المؤمنين في الظاهر، فهم الذين لبسوا ثوب الإسلام على إغماض، وعلى غير رضا به غير أنهم لم يمكروا ولم يكيدوا كغيرهم، فهؤلاء قد أجرى الإسلام عليهم حكم المؤمنين ونحن أجرينا من ذكرنا في الحالة الثانية مجراهم وجعلنا حكمهم كحكمهم لعدم الفارق، بل لعل الحكم في الفرع أولى فتنبه.

ودليل ما ذكرنا في الحالة الرابعة، قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة: ٨]، وكذلك سكوت أمير المؤمنين عن معادة بعض من أصحابه مع علمه بما هم عليه من العصيان بما يظهر من فلتات ألسنتهم في مجادلتهم له ومحاورتهم معه، فإنه سكت عن المعادة، وأجرى عليهم حكم المؤمنين حتى أعلنوا بالعداء، وجاهروا بالعصيان، وخرجوا عن الطاعة، ونزعوا أيديهم من يده، فعند ذلك عاداهم.

فهذا القسم الذي ذكرناه في هذه الحالة الرابعة لا تلزم مقاطعته ما دام على ما وصفنا من التستر، وعدم الوقوف في طريق الإرشاد.

الفائدة الحادية والثلاثون: في الأسلوب الأمثل:

التلويح بالموعظة أبلغ في نفس العاصي وإلقاؤها إليه من بعد أنفع له، ولا سيما إذا لم يلتفت إليه الواعظ ولم يظهر منه ما يدل على أنه يريد فينبغي أن لا يتعرض المرشد لوعظ شخص معين، ويحثه على ترك معصية معينة، ولكن يجعل الموعظة للناس عامة، ويحذر من المعاصي عموماً، ويذكر الوعيد، ويجعل تلك المعصية أحد ما يحذر منه، ويخصها بشيء من الزيادة على حسب مقتضى الحال، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم، وأسلوب النبي ﷺ.

فعلى المرشد أن يتخير الأنفع في الموعظة، والأبلغ والأرشد، وأن يتجنب ما عساه يؤدي إلى النفور والاشمئزاز، وينبغي للمرشد أيضاً أن لا يسمح لأحد بالكلام في أحد، فإنه قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

الفائدة الثانية والثلاثون: وهي فائدة جامعة، وهي في سلامة الصدر من الفساد:

جاء في الرواية عن النبي ﷺ أنه قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان»، قيل: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد»، إن فساد القلب داءٌ خبيث يفسد الأعمال الصالحة، ويطمس بهجتها، فلا يكون فيها فائدة ولا عصمة إن الحقد إذا حل في القلب دفع بصاحبه إلى التخیل وافتراس الأكاذيب واتهام الناس بما هم منه بريئون، وتكبر له نفسه الشيء الصغير وتضخمه، ثم القسوة والعناد، فيقطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسد في الأرض، ومن ثم فلا يستريح صاحب الحقد إلا إذا وجد له متنفساً يرغي فيه ويزبد، ويؤذي ويفسد. وقد أدرك الناس حتى في جاهليتهم أنه لا يحمل الحقد إلا أهل الدناءة، أما أهل المروءات فإنهم يتنزهون عنه، قال عنتره:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

والحقد هو بذرة الفساد التي تثمر الحسد والبغضاء والمشاحنة والنميمة والغيبة، والافتراء على الناس، وظن السوء، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، والفساد في الأرض بغير الحق، والبغي والإثم، ويحمل صاحبه على رد الحق وشكاسة الخلق، ومن ثم فلا يقبل عشرة عاثر، ولا يقبل معذرة معتذر، ولا يغفر ذنب مذنب، وعند ذلك تنتزع من قلبه الرحمة، وتحل محلها القسوة، وتستولي عليه الغفلة، فتراه يتمنى الخسارة لكل أحد لا شيء إلا لأنه هو لم يربح، فلا تزال مراحل الحقد تغلي في صدره؛ لأنه وجد متاع الدنيا الذي يتمناه في يد غيره من دونه، وهذه عنده هي الطامة وقديماً لما رأى إبليس أن آدم قد حاز كرامة الله حقد عليه، وعلى ذريته، فقال مقسماً: ﴿قَالَ فِيمَا آَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٧﴾ [سورة الأعراف: ١٦-١٧].

وذلك لأن الحاقد لما فاته الخير، تحوّل يكيد للحاصلين عليه، كما قال الشاعر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فالكل أعداء له وخصوم

وكان الأجدر بهذا الحاقدا أن يتحول إلى ربه يسأله من فضيله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَمَّنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ﴾ [سورة النساء: ٣٢]، فلربما أدرك بعد ما عجز عنه من قبل، فإن فضل الله واسع، وقد أمر بسؤاله.

ونعوذ بالله من الحقد فإنه إذا استشرى في القلب صعب علاجه وتعسر إطفاء حرارته، وفي المثل: (آخر الدواء الكي) فلن يطفئ لهيبه إلا حميم جهنم وغسلينها، ثم الكي بجمرها عند ذلك سيفيق الحاقدا ويتندم على ما فات ولكن حين لا ينفع الندم.

طبيعة الحقد

نعم، طبيعة الحقد الذي يجده الإنسان في نفسه هي أمر لا يستطيع الإنسان أن يتخلى عنها؛ لأنها فطرة وطبيعة طبعت عليها النفوس، فالنفس بطبعها تدعو إلى الإثم والبغي والفساد. والله سبحانه وتعالى حين دعا عباده إلى ترك الحقد أراد منهم أن لا يطيعوا أنفسهم فيما تدعوهم إليه، ولا يوافقوها فيما تهوى، وهذا مما هو داخل في قدرتهم وتحت وسعهم. إذا فالإنسان مكلف بحبس لسانه ويده وجميع جوارحه عن كل ما تدعو إليه طبيعة الحقد، فبقدرته أن لا يتنقص أحداً، ولا يهتك عرض أحد، وبقدرته أن يتواضع لإخوانه، ويدعو لهم بخير الدنيا والآخرة، وبقدرته أن يسعى فيما ينفعهم وبقدرته أن يذكر فضائلهم، وأن يصون أعراضهم، وأن يدافع عنهم، ولا يضره حينئذ ما في قلبه، وإنما يضره لو أطاع هوى نفسه، أما إذا خالف هوى نفسه فلا يضره، وتاماً كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النازعات: ٤٠-٤١].

فالمؤمن الحق هو الذي رجحت عنده طاعة ربه على طاعة هوى نفسه، وهذا هو الحب الذي مدح الله المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥]، فالمحب لله تعالى يؤثر طاعة ربه على طاعة نفسه، ويقدم ما يحبه الله تعالى على ما تحبه نفس.

جهاد النفس

وهكذا كل الطاعات، فإنها لا تحصل إلا بعصيان النفس ونهيها عن هواها، فكل واحد مما أمر الله تعالى به له من النفس ما يدعو إلى خلافه.

فمثلاً التصديق بالله تعالى، وبرسله، وبالיום الآخر يزاحمه ويصارعه الشك الذي تقتضيه طبيعة النفس، وليس في وسع المكلف أن يبعد الشك عن نفسه، لكنه مكلف بأن لا يستجيب لداعي الشك، وبأن يضعفه ويكسر شوكته بالنظر والتفكير في آيات الله، والتدبر لكتاب الله، ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء: ٨٢]، فالتدبر لكتاب الله تعالى يدحر الشك، ويكبحه ويضعفه، فالمكلف محتاج دائماً إلى مجاهدة نفسه وعصيانها ومصارعتها، وكبح جماحها في كل طاعة.

والنجاح في السيطرة على النفس وكبح جماحها مرهون بحصول الخشية من الله تعالى، والخوف من عقابه.

هذا، ولولا المشقة العظيمة التي يعانيتها المكلف في مصارعة نفسه، ورد هواها في كل ما كلف به لما استحق المنازل الرفيعة في الجنة، ولذا قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النازعات: ٤٠-٤١].

هذا، وقد قال تعالى فيمن أعرض عن داعي ربه، واستجاب لداعي هواه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ۖ وَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٤٣]، الله سبحانه وتعالى يدعو المكلف إلى طاعته، وداعي الهوى أيضاً يدعو إلى طاعته، فإذا استجاب لداعي الله تعالى فهو مؤمن، وإن أعرض عن داعي الله تعالى، ومال إلى إجابة الهوى وطاعته، فقد خرج بذلك عن الإيمان، وعبد هواه، ويلزمه لذلك اسم الكفر والشرك؛ لأن من عبد غير الله تعالى يسمى كافراً أو مشركاً، وإن لم تجر عليه بعض الأحكام.

قد يخف هوى النفس تدريجياً: فالمكلف في بداية الأمر يجد صعوبة شديدة، ويعاني من المشقة والتعب معاناة ثقيلة، ثم تخف تلك الصعوبة والمعاناة في الوقت الثاني، ثم كذلك حتى تنقاد النفس أخيراً، ويسهل قيادها.

الخاتمة

ينبغي الإكثار من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى في الأوقات المناسبة، ولا سيما في وقت الخلو بالنفس والهدوء، ومن الأدعية المأثورة: «اللهم لك الحمد لا إله إلا أنت عالم الغيب والشهادة، اللهم أذهب عنا الهم والحزن والفتن ما ظهر منها وما بطن، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»، والاستغفار فيه خير كير، خير الدنيا والآخرة، فلا يمل الإنسان منه. وأخيراً، فقد أفرغت في هذه الصفحات كل ما أنصح به المرشدين وطلبة العلم، ولم أدخر عنهم شيئاً فيه خير ومنفعة، نزولاً تحت وجوب القيام بالنصيحة.

ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلاماً على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً.

تم بحمد الله

فهرس الموضوعات

١	تقديم
٢	النية
٤	كيف يكون الطالب حال الطلب؟
٥	الحسد
٧	عادة سيئة
٨	العجب
٩	التعاون
١١	الاشتغال بعيب النفس
١١	وصية لأمر المؤمنين
١٢	الحث على ستر العورة
١٢	رذائل تكدر الصفو
١٢	عوائق في سبيل طالب العلم
١٥	الكبر
١٥	كتمان المصيبة
١٦	من خلق المسلم
١٦	فوائد متفرقة
٣٤	طبيعة الحق
٣٤	جهاد النفس
٣٥	الختام
٣٦	فهرس الموضوعات